

الإثنيون 17-12-2007

## 108- التطور الحيوي يتحدى المستحيل

ورد هذا الخاطر في مقال أمس بالحرف الواحد:  
إن الحياة الحقيقية هي حركة دائبة بين المستحيل والممكن  
وبالعكس: بين الممكن والمستحيل  
وهي ليست مجرد حركة في الحبل بل إنها في صورتها الحيوية،  
تسعى طول الوقت أن تجعل المستحيل ممكناً،  
وفي نفس الوقت أن تحول دون أن يتحول الممكن إلى مستحيل.  
قيل وكيف يكون ذلك؟

وفي هذا نقول اليوم:  
أليس طلب المستحيل دون حسابات، هو الجنون نفسه؟  
ليس تماماً.

الجنون هو نتاج التعجل في تحقيق المستحيل، ثم تفعيله  
بعيدا عن أرض الواقع، في وحدة زمنية أقصر مئات (أو آلاف)  
المرات التي يمكن أن يتحقق فيها؟ ومن ثم تحقيق ما يشبهه،  
وليس هو.

إرادة المستحيل في ذاتها ليست جنونا، بل لعلها أرقى أنواع  
الوجود، متى أمكن ترويضها فعلاً يوميا، لا مجرد خيال مرسوم.

في الفترة الأخيرة، وأنا أتعرف على الموت، وعلى الطريق إلى  
الحق سبحانه وتعالى، وعلى محاولات التواصل المتعدد المستويات  
(الحب المتكامل)، وعلى حركية الفطرة، إزدادت تمسكا بأنه  
يستحيل ضمان تواصل حركة التطور (التي أنتمى إليها وأحاول  
تنميتها في نظري العلمي وممارستي المهنية) إلا باحترام:  
إمكانية المستحيل.

هل من الممكن أن يتصور نوع من الأحياء أنه يمكن أن  
يصبح نوعاً آخر؟

طبعا لا.

يبدو هذا مستحيلا، بدليل أن الأنواع التي نزع من أننا  
تطورنا منها مازالت موجودة!.

هذه إجابة مغلوطة

الأنواع المتبقية حالا ليست هي الأنواع التي تطورت عبر ملايين السنين لتحقق المستحيل فيظهر ما هو "إنسان" هكذا بإذن الله.

أعرف وأتابع الهجوم الأحدث على نظرية داروين، حتى بلغني أنهم منعوا تدريسها في بعض ولايات أمريكا، وأحلوا محلها نظرية "العقل الذكي"، متصورين أنهم بذلك يشيرون إلى الله عز وجل، وهم بهذا التراجع التجهيلي لا يضيفون شيئا حقيقيا إلى معرفة الدين، ولا معرفة الكون، ولا معرفة الله، هذا اختزال بشع ليس فقط للعلم، وإنما لحركية التوجه إلى الحق سبحانه وتعالى،

لا أعرف أى دين حقيقى يتعارض مع تطور الأحياء، (دع جانبا رجال الدين، إن كان للدين رجالا غير كل خلق الله جميعا)،

فرحت مؤخرا (منذ عامين) فرحا شديدا بفيلسوف رائع هو دانييل دينيت Daniale Dennet يعود بنظرية التطور إلى موقعها مع مناقشة ناقدة، وتحديث هادف. كان ذلك من خلال كتابه الذى أرجو أن تتاح الفرصة لمناقشته في هذه النشرة هنا يوما بعد يوم. هو كتاب "أنواع العقول" Kinds of Minds الذى قام بترجمته د. مصطفى فهمى ترجمة جيدة إلا العنوان الذى ترجم إلى **تطور العقول** بغير وجه حق.

من خلال هذا الكتاب وغيره استعادت نظرية التطور حيويتها وعادت تحتل مكانتها اللائقة بها فأطمأنت،

مجرد أن تصدق الخطوط العريضة لهذه النظرية سوف تعرف مباشرة أن المستحيل (أن يتنازل نوع عن وجوده ليصبح نوعاً آخر) هو الذى حدث (أكرر التذكرة بأن قرود اليوم التى رضيت بالمكن ليست هي أجدادنا الذين عروا إلى المستحيل: نحن!).

ثم حدثت الكارثة الرائعة الواعدة. حين بزغ ما يسمى الوعى، ثم الوعى بالوعى، الورطة البديعة للجنس البشرى دون ما نعرف من أحياء.

وبدلا من أن يحترم هذا الوعى قوانين هذه المسيرة، احتواه العقل الأحدث وراح يصنف الأحداث والتخطيط والأحلام والآمال إلى "ممكن" و"مستحيل"،

في أول الأمر، وربما من حيث المبدأ: بدا ذلك إضافة جيدة، المفروض أن تدعم مسيرة التطور.

لم تجر الأمور هكذا تماما، إذ لم نحسن استخدام هذا الوعى والوعى بالوعى، لدعم مسيرة اختراق الممكن وتجاوزه واستيعابه لتحقيق المستحيل، راح ما يسمى "العقل" يمارس أغلب نشاطه بديلا عن الواقع المحيط، وعن الأصل الكامن معاً، بشكل أو بآخر، وقد أجز بذلك إنجازات رائعة، لكن على حساب ضمور



حتى لو سكنت الحركة تماما، حتى لو سُلمت مفاتيحه لغير أهله (العلم الوصى الأيديولوجي أو الدين الجامد اللفظي، أو التسليم المائع التكيفي، أو الانشقاق الجانبي التفرغي، أو التنظير البديل المعقلن).

**ثانيا:** قد يتم إطلاق هذا الوعي الأعمق تفعيلا متسارعا ليكسر "كل" أو "أغلب" الخواجز التي تفرض عليه الخمود أو الإلغاء، بما يشمل كسر الغطاء والقفز فوق الخواجز دون أي حساب للعواقب، وأيضا يشمل ذلك تحقيق المستقبل الذي تعد به حركية هذا الوعي، يشمل تحقيقه (تفعيله) هنا والآن **تحقيقا** شأنها مرضيا بأقرب رمز متاح، وما معتقدات المهدي المنتظر، أو ضلالت النبوة والألوهية إلا بعض ذلك.

**ثالثا:** قد يختفى هذا الوعي في الاغتراب في خيال منسوج، لا يتجاوز مستوى الخيال، وقد يظهر في صورة مرضية، أو يتجلى في بعض الانتاج الفني المتواضع، أو حتى في ما يسمى أحلام اليقظة.

**رابعا:** قد يحدث السماح (الطبيعي) بأن تستوعب هذا الوعي الحركية الإيقاعية للنشاط الخالم، فلا يظهر من آثار هذا الوعي إلا الخل اليومي التراكمي الذي لا نغيزه عادة (اضطراب النمو المستمر) إلا بعد فترة طويلة

**خامسا:** قد يتم استيعاب هذا التحدي لتحقيق المستحيل في قفزات (أزمات) النمو بين مرحلة ومرحلة.

**سادسا:** في عدد قليل من تتاح لهم الفرصة يمكن تحمل مسؤولية الوعي بنفى المستحيل في وعى فائق، وليس مجرد وعى كامن، ثم يتواصل السعى إلى تحقيقه، مع الرضا - في نفس الوقت - بأى قدر من الممكن الذى يتحقق لفترة، تمهيدا لانطلاق جديد لمعاودة السعى لكسر المستحيل، وهكذا.

هذا هو **الخل الابداعي** وله تجلياته المختلفة في مجالات الإبداع سواء إبداع الذات، أو الإبداع الخالقى **(حركية الوجود وتجليات الإبداع)**، أو الإبداع الثورى،

ويمكن أن يكون الناتج الإبداعى بمثابة تخطيط واعد لمستقبل قادم يهز استحالة المستحيل.

هذا المسار الأخير (سادسا):

يعرف أنه يطلب المستحيل ويعمل موضوعيا لتحقيقه، لكنه يرضى بالممكن الذى يتحقق منه أولا بأول، لينطلق منه من جديد استكمالاً للمسيرة لتحقيق المستحيل التالى الذى لا يتحقق منه إلا ممكنا محدودا،

وهكذا تستمر الحركة ويتواصل الإيقاع

**استدراك**

\* يبدو هذا التنظير بعيدا عن التطبيق اليومي لكنى أظن الأمر غير ذلك، وسوف أورد مثالين عمليين على الوجه التالى.

### مثال من الممارسة المهنية:

في كثير من الأحيان يبدو شفاء مريض ماً مستحيلًا (خاصة أولئك الذين يتناثرون وهم يكسرون حواجز المستحيل، ومخطمون سقفه، فتفسخ ذواتهم ويتمادى تراجعهم وتدهورهم)، حين يبلغنا مدى هذا الخراب الذي انتهى إليه المريض حتى استتب التدهور، ونحمد في هذا السكون الخامل، نعلن العجز، ونبالغ في التمدادى في التسكين بالمهدئات الجسيمة طول الوقت طول العمر، لأن هذا هو الممكن،

البديل المزعج الرائع لهذا الاستسلام للمستحيل هو تبني "نفي المستحيل"، وذلك باحترام اندفاعة المريض إلى تحقيق وعيه بإمكانية كسر المستحيل، مع تبصرته بحجبة أسلوبه، وحين تصل الرسالة (غير لفظية عادة) إلى المريض أنه **فعلًا المهدي المنتظر**، (مثل أي واحد فينا) **مجرد أن التطور مستمر**، وأنه يسميه المهدي، في حين يسميه نيئشه الانسان الأعلى كما يسميه بونج التفرد، ويسعى أغلب المتصوفة إليه بأسماء وصفاته رائعة أخرى، حين يبلغه - ممارسة - أن هذه هي طبيعتنا وأنه لم يفعل شيئًا إلا أنه أعلنها مبكرًا، حالًا، شطحا: بما تيسر له من ألفاظ وصور، فترجم هذا النزوع الطبيعي إلى أنه "المهدي المنتظر أو النبي أو الله" حينئذ تبدأ مسيرة العلاج بتوجه مختلف وإيقاع مختلف.

### مثال (2) عن استحالة التواصل المتكامل:

في عمق الوعي اليقظ يبدو مشروع التواصل المتكامل (يسمى أحيانا الحب)، المتعد المستويات مع آخر حقيقي، **مستحيلًا** ولقد أشرنا إلى مثل ذلك في مواجهة هذه الإشكالية مثلا في نشرة "من يجب من" **يومية 8-10-2007** هذه الاستحالة تفرض نفسها إذا حضر التواصل مَطْلِباً بذئيا بكل حجمه هذا ومواصفاته تلك، فتقفز الحلول والبدائل والتأجيلات وربما التشوية بنفس الأساليب التي أشرنا إليها حالا في حديثنا عن التعامل مع "الوعي بنفي المستحيل":

إما بالإنكار والتسليم لاستحالة أو بالتفعيل الشاطح أو بالانشقاق أو باللجوء إلى الخيال أو بالانسحاب أو - نادرا - بالإبداع والاستمرار.

ويتوقف تجاوز هذه الاستحالة إلى الممكن بقدر ما يبذل الطرفان من جهد لمواصلة **إبداع وتجديد العلاقة** على أرض الواقع في تحمُّ متواصل، يستلهم هذا القانون الحيوى الأساسى القائل بإمكانية المستحيل.

### تعقيب

ما أصعب كل هذا التنظير، وأسخفه. كل ما أود الخروج به من كل هذا هو التوصية بعدم التنازل عن حقنا في تحقيق المستحيل. وفي الوقت نفسه عدم التعجل لتحقيقه مع استمرار الوعي (ربما السرى) بموضوعية إمكانية المستحيل، طول الوقت



{ "هوه دا يخلص من الله :  
 اللي غمض مات غبي،  
 واللى شاف، خاف واترعب،  
 مابقاش نبي. }  
 لو ملتوته،  
 حاتقول حدوته:  
 { كان فيه زمان،  
 واحد رفض عيشة الهوان،  
 قال إيه وحاول يبقي "خلقة ربنا"  
 مع إنه زيه زيننا،  
 يعنى : بشر.  
 قالوله حاسب ما القدر،  
 قام راح عاملها، وقال: "فشر".  
 خاتمة "أغوار النفس"، سنة 1978  
 الناشر: دار الغد للثقافة والنشر  
 نهاية قصيدة "صاغتني شيخى على نفسى"

وسمعت ضحكا خافتا. لا.. ليس سخرية ولكن.....

... وسمعت صوتاً واثقا في عمق أعماقي يقول: **المستحيل هو النبيل الممكن الآن بنا.**

لمست عباءة تلك الرقيقة جانبا من بعض وعيى، فعلمت أنك كنته.

وصحوت أندم أننى قد كنت أحلم.

نشرت في الاهرام  
 بتاريخ 15-12-2003

نهاية رواية "ملحمة الرحيل والعود"  
 (الجزء الثالث من ثلاثية: المشى على الصراط)

- هه، يا منال.
- هه يا جلال.
- إذن ماذا؟.
- إذن هذا؟.
- الله يجيبك!
- الله يجرب بيتك.
- نعملها؟.
- لا طبعاً.
- نبقى هكذا؟.
- لا.. طبعاً.
- يعنى؟؟.
- يعنى موافقة.
- على ماذا؟.
- على الممكن المستحيل.!!!.
- والله ما هي نافعة!!.
- أحسن.

- فلماذا نستمر نحاول؟.  
- هل عندك بديل؟.

دهب: بتاريخ 7-2-2004

وبعد

هذا ما كان من إرهاصات باكر،

هل يا ترى نُمّ مجال لتناول بعض العناوين والعناصر التي  
أوردناها أمس في مستهل النشرة، خاصة عن الشعر والغناء،  
و"الهنا والآن" ممتداً، والحق سبحانه وتعالى؟

ربما

- "تطور العقول" Kinds of Minds تأليف: داينيل  
دينيث، ترجمة د. مصطفى فهمي، الناشر: المكتبة الأكاديمية  
"سلسلة كراسات عروض" القاهرة